

الفصل التاسع

الصقالبة الغربيون

(١٣٠٠ - ١٥٧١)

١ - بوهيميا

لا يزال الصقالبة إلى الآن أشبه بالموجات البشرية تجيش أحياناً ناحية الغرب إلى الألب ، وجنوباً إلى البحر الأبيض المتوسط ، وشرقاً إلى الأورال ، وشمالاً إلى البحر المتجمد ، وقد ردهم إلى الغرب بعد ذلك في الثالث عشر ، الفرسان الليفونيون والتوتون ، أما في الشرق فقد خضعوا لسيطرة المغول والتتار - وقادت بوهيميا في القرن الرابع عشر الإمبراطورية الرومانية المقدسة والإصلاح الديني قبل لوثر ، كما اتحدت بولندا مع ليتوانيا التي كانت متسعة الأرجاء : فأصبحت دولة كبيرة ، ذات طبقة عليا على حظ رفيع من الثقافة . وتحررت روسيا في القرن الخامس عشر من نير التتار ووحدت إماراتها المبعثرة في دولة ضخمة . وهكذا دخل الصقالبة التاريخ كهجرة من موجات المد البشري .

وانتهت أسرة تبرزملد العريقة في بوهيميا بموت ونسلوس عام ١٣٠٦ وأعتبها فترة من الزمان حكم فيها ملوك صغار الشأن ثم جاء الناخبون من البارونات ورجال الدين بجون أمير لكسمبورج ، ليؤسس أسرة حاكمة جديدة (١٣١٠) . وأصبحت بوهيميا بنضيل مغامراته الباسلة قلعة منيعة من قلاع الفروسية جيلا من الزمان ، وتعذر عليه أن يعيش بلا صولات وجولات حتى إذا ثبت له أن هذه الفروسية لا ضرر منها على الإطلاق ، اندفع إلى الحرب في كل مملكة من ممالك أوروبا تقريباً . وأصبح من الكلم

المأثور في تلك الأزمنة أنه لا يتحقق شيء بغير العون من الله وملك بوهيميا .
فالتهمت برسكيا التي حاصرتها فيرونا ، أن يمد لها يد المعاونة ، فوعد
بالقدوم إليها ، وما كادت الأخبار تشيع بوغذه هذا حتى رفع الفيرونيون
الحصار واعترفت به مختارة برسكيا وبرجامو وكريمونا وبارما ومودينا بل
وميلان أيضاً ، سيداً إقطاعياً عليها في مقابل أن يبسط حمايته عليها جميعاً ،
وقد استطاع هذا الملك بسحر اسمه أن يحصل على معظم ما عجز عن تحقيقه
بقوة السلاح فردريك الأول ذو اللحية الحمراء ، وفردريك الثاني أعجوبة
الزمان وأضافت حروبه الجريئة مساحة من الأرض إلى بوهيميا ولكنها
أفقدته عواطف رعاياه ، الذين لم يستطيعوا أن يغتفروا له غيابه الدائم عن
بلادهم ، التي أهمل إدارتها ، وحز في نفوسهم أنه لم يفكر قط حتى في أن
يتعلم لغتهم . وفي عام ١٣٣٦ لازمه مرض عضال كف بصره وهو يخوض
معركة صليبية في ليتوانيا . ومع ذلك - فإنه عندما علم أن إدوارد الثالث
ملك إنجلترا نزل إلى البر في نورمانديا متجها صوب باريس ركب مع
ابنه شارلز في خمسمائة فارس بوهيمي ، وعبروا أوربا ليكونوا مدداً لملك
فرنسا . وحارب الأب والإبن في الطليعة عند كريسي . حتى إذا
انسحب الفرنسيون ، ناشد الملك الكفيف اثنين من فرسانه ، أن يربط
جواديهما إلى جانبي جواده وأن يقوداه لمحاربة الإنجليز المنتصرين ، قائلاً :
« هذه مشيئة الله ، ولن يقال إن ملكاً على بوهيميا قد فر من حومة الوغى »
وقتل من حوله خمسون - من فرسانه . وأثنى بجرح مميت ، ثم نقل وهو
يحتضر إلى خيمة الملك الإنجليزي . . فأرسل إدوارد الجثة إلى شارلز ومعها
رسالة مهذبة يقول فيها : لقد سقط اليوم تاج الفروسية .

وكان شارلز الرابع ملكاً أقل بطولة وأرشد عقلاً . فأثر المفاوضة على
الحرب ، ولم يكن من الجبن بحيث يقبل الهوان ، ومع ذلك فقد وسع من
حدود مملكته ، وجعل الصقالبة والألمان إبان السنوات الاثنتين والثلاثين من

حكّمه ، يعيشون في سلام غير مألوف . وأعاد تنظيم الحكومة ، وأصلح القضاء ، وجعل براغ من أجمل مدن أوروبا . وشيد فيها مقراً ملكياً على طراز اللوفر ، والقاعة الشهيرة كارلشتين أي « حجر شارلز » لتكون داراً أمينة لمحفوظات الدولة وجواهر التاج - التي أودعت فيها لالمباهاة والعرض بل لتكون مالا احتياطياً منقولاً حصيناً يصلح غطاء للعملة . واستقدم ماثيو الأراسى لكى يصمم كاتدرائية القديس « فيتوس » وتوماسو الموديناوى ليرسم صوراً جصية على جدران الكنائس والقصور . وعمل على حماية الفلاحين من الاضطهاد ونهض بالتجارة والصناعة . وأنشأ جامعة براغ (١٣٤٧) ، ونقل إلى مواطنيه الولع بالثقافة الذى اكتسبه في فرنسا وإيطاليا وشجذ الحافز الفكرى الذى فجر الثورة الهوسية ، وأصبح بلاطه مركز الدارسين الإنسانيين البوهيميين ، وعلى رأسهم الأسقف جون الاسترساوى صديق بترارك . ولقد أعجب هذا الشاعر الإيطالى بشارلز فوق إعجابه بأى ملك من ملوك ذلك العصر وزاره في مدينة براغ ، وناشده أن يغزو إيطاليا ، ولكن شارلز كان أرشد فكراً وكان حكّمه ، على الرغم من نشرته الذهبية هو عصر بوهيميا الذهبى . وهو باق يبتسم ، في تمثاله النصفى من الحجر الجي ، في كاتدرائية براغ .

وكان « ونسيسلوس الرابع » في الثامنة عشرة من عمره عندما مات أبوه (١٣٧٨) ، ولقد أكسبته فطرته الطيبة ، وحبه لشعبه ، وترفته في فرض الضرائب عليهم وبراعته في الإدارة ، محبة الجميع ما عدا النبلاء الذين رأوا أن شعبيته تعرض امتيازاتهم للخطر . وانتهت سوررات غضبه حيناً وإدمانه الشراب حيناً آخر بهؤلاء النبلاء إلى خلعه ، ففاجأوه في مقره الرينى وألقوا به في السجن (١٣٩٤) ، ولم يعيدوه إلا بعد أن أخذوا عليه العهد بأن يمتنع عن الإقدام على أى عمل له أهميته دون موافقة مجلس من النبلاء والأساقفة . ونشأت فن أخرى ، واستدعى سيجسموند ملك المجر ، فقبض على أخيه

ويسلوس وأخذه أسيراً إلى فينا (١٤٠٢) . وفر الرجل بعد ذلك بأعوام قلائل ، واتخذ طريقه عائداً إلى بوهيميا فاستقبله الشعب مبهجاً ، واستعاد العرش والسيادة . واختلطت البقية الباقية من قصته بمأساة هس .

٢ - جون هس

(١٣٦٩ - ١٤١٥)

كان ونسيسلوس محبوباً مكروهاً في آن واحد ، لأنه تسامح مع الهراطقة وتشدد مع الألمان . وأثمر التسلل السريع في بوهيميا من عمال المناجم وأصحاب الحرف والتجار وطلاب العلم ، عداوة عنصرية بين التوتون والتشيك ، وكان هس حرياً بالأ يلقى التأييد من الملك والشعب لولا أنه رمز لكرهية قومية للفرق الألماني . ولم ينس ونسيسلوس أن رؤساء أساقفة ألمانيا قادوا حركة خلعه عن العرش الإمبراطوري ، وتزوجت أخته آن رتشارد الثاني ملك إنجلترا وفطنت إلى - ولعلها عطف على - محاولات ويكليف ؛ أن يفصل إنجلترا عن الكنيسة الرومانية . وفي عام ١٣٨٨ خلف أدلبرت رانكونيس مبلغاً من المال يعين الطلاب البوهيميين على الذهاب إلى باريس أو أكسفورد . وحصل بعض هؤلاء أو نسخوا بعض مؤلفات ويكليف وحملوها معهم إلى بوهيميا ، وأقام ميلتش الكروميرزي وكونراد ولد هوزر ، براغ وأقعداها باتهاماتهما لرجال الدين والعلمانيين بالخروج على الأخلاق ، وواصل ماتياس الجنوفي وتوماس الستيتي هذه الدعوة فأيدها الإمبراطور بل أن أرنت كبير الأساقفة قد وافق عليها ، وفي عام ١٣٩١ ، أقيمت في براغ كنيسة خاصة سميت كنيسة بيت لحم لتقود حركة الإصلاح . وفي عام ١٤٠٢ عين جون هس واعظاً لهذه الكنيسة .

ولقد بدأ حياته في قرية هوسينتر ، وعرف باسم جون الهوسينترزي الذي اختصره فيما بعد إلى هس . وجاء حوالي عام ١٣٩٠ إلى براغ وهو

طالب فقير وكسب عيشه بالخدمة في الكنيسة ، وكان أمله أن ينخرط في زمرة القساوسة ، ومهما يكن من شيء ، فقد انضم إلى طرائق الشباب البوهيمي جرياً على سنة العصر ، وهو ما أسمته باريس بعد ذلك « بالبوهمية » المرحة للشباب الجامعي ، وحصل عام ١٣٩٦ على أجازة أستاذ في الآداب ، وبدأ يدرس في الجامعة ، واختير عام ١٤٠١ عميداً لكلية الآداب - أو بعبارة أخرى عميداً للدراسات الإنسانية ورسم في ذلك العام قسيساً ، وأصلح حياته حتى اقترب بها إلى زهد الرهبانية ، وأصبح باعتباره رأس كنيسة بيت لحم ، أشهر واعظ في براغ ، وكان بين المستمعين إليه كثيرون من رجال البلاط ، وقد نصبته الماكة صوفياً واعظاً لها . وأخذ يأتي عظاته باللغة التشيكية ، وعلم رجال كنيسته أن يسهموا بنصيب إيجابي في الصلاة بترتيل الأناشيد الدينية . ولقد أكد الذين اتهموه فيما بعد أنه ردد في السنة الأولى من عمله الكهنوتي شكوك ويكلييف حول اختفاء الخبز والنبذ من العناصر المقدسة في العشاء الرباني . وليس من شك في أنه قرأ بعض مؤلفات ويكلييف ، ودون نسخاً منها لا تزال باقية بتعليقاته عليها ، واعترف في محاكمته أنه قال « إنني على ثقة من أن ويكلييف سينجو ، ولكن لو اعتقدت أنه سيعذب لتمنيت أن تكون روحى مع روجه » ونالت آراء ويكلييف عام ١٤٠٢ في جامعة براغ حظاً من الشهرة جعل القوامين على الإدارة الكهنوتية في الكاتدرائية يتقدمون إلى أستاذة الجامعة بخمسة وأربعين نصاً مختاراً من كتابات ويكلييف متسائلين : هل تمنع الجامعة هذه الأقوال ؟ - فأجاب عدد من الأساتذة بينهم هس بالنفي ، ولكن الأغلبية حكمت أنه لا يجوز منذ ذلك الحين لأى عضو من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة ، أن يدافع أو ينتصر بصورة علنية أو سرية لقول من هذه الأقوال الخمسة والأربعين .

ولا بد أن يكون هس قد تجاهل هذا التحريم ، لأن رجال الدين في براغ التمسوا عام ١٤٠٨ من زيبينك كبير الأساقفة أن يزجره ، فاستجاب

لهم كبير الأساقفة بجنر لأنه كان وقتذاك على خلاف مع الملك . ولكن هس استمر في عطفه على آراء ويكلييف فأصدر عليه زبينك وعلى عدد من زملائه قرار الحرمان (١٤٠٩) حتى إذا أصروا أن يمارسوا وظائفهم الكهنوتية ، جعل براغ بأسرها تحت وطأة قرار الحرمان . وأمر بأن تسلم إليه كل ما يوجد من كتابات ويكلييف في بوهيميا وأحضرت إليه مائتا مخطوطة ، فأحرقها في ساحة قصره . فاستأنف هس القرار إلى البابا المنتخب حديثا يوحنا الثالث والعشرين . فاستدعاه ليمثل أمام المحكمة البابوية ، فأبى أن يذهب إليها .

ورغب البابا عام ١٤١١ في الحصول على أموال للقيام بحملة صليبية على لاديسلاس ملك نابولي ، فأعلن عرضاً آخر لصكوك الغفران . ولما أذيع ذلك في براغ وبدأ للمصلحين أن عملاء البابا يبيعون الغفران بالمال ، دعا هس ومؤيده الأول جيروم البراغي ضد هذه الصكوك ، وناقشا وجود المطهر ، واحتجوا على جمع الكنيسة للأموال لإهراق الدم المسيحي . وهبط هس إلى القدح فوصف البابا بأنه « نابش الأموال » وزاد على ذلك بأنه ضد المسيح . وشارك جانب كبير من الشعب ، هس في آرائه وعرض عمال البابا للسخرية والانتقاص ، إلى حد جعل الملك يحرم كل دعوة أو عمل بعد ذلك ضد صكوك الغفران . وخرج ثلاثة من الفتيان على هذا المرسوم ، فاستدعوا إلى مجلس المدينة ، ودافع هس عنهم ، واعترف بأن دعوته أثارتهم ، فأدينوا وقطعت رؤوسهم . وعمل البابا في تلك الفترة على توجيه حرمانه إلى هس . ولما تجاهل الرجل القرار أصدر يوحنا قراراً بحرمان أي مدينة يأوى إليها (١٤١١) . ورحل هس عن براغ مستجيباً لنصيحة الملك وظل معزولاً بالريف عامين .

وكتب في هذين العامين أهم مؤلفاته ، بعضها باللاتينية ، وبعضها بالآتشكية وتكاد كلها تنطق بوحى ويكلييف ، وربما ردد بعضها المرطقة

واختصاص ، الكهنوت مما جلبته شعبة باقية من الولدانين إلى بوهيميا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . ولقد أنكر عبادة الصور والاعتراف السمعي وتعدد الشعائر الأنيقة . وأعطى حركته صفة شعبية وقومية بالانتقاص من قدر الألمان والدفاع عن الصقلية و « المقالة عن « التجارة في الأشياء المقدسة هاجم تجار رجال الدين بالمقدسات » ، وفي « الموضوع في ستة أخطاء » De sex erroribus نعى على التساوسة أخذ أجر على العباد وتثبيته والتمداس والزواج والدفن ، واتهم بعض رجال الدين في براغ ببيع الزيت المقدس ، وأخذ برأى ويكلييف في أن القسيس الذي اقرت بيع المقدسات لا يجوز له شرعاً أن يناول السر المقدس ، أما رسالته عن « اجتماع مجلس شرفاء المدينة » De ecclesia فقد أصبحت بمثابة دفاعه وسبب هلاكه في وقت واحد فإن من صفحاتها نقلت الخرطقة التي أحرق من اجلها . فقد اتبع ويكلييف في القول بالجبر ، وأيد ويكلييف ومارسيليز وأكهام في أن الكنيسة يجب ألا يكون لها طبيبات دنيوية وعرف الكنيسة مثل كالفن بأنها ليست هيئة رجال الدين ولا الجمع المسيحي بأسره ، ولكنها المجموع الكلي في السماء أو على الأرض للناجين من الخطيئة ، وليس البابا رأس الكنيسة ، ويجب أن يكون الإنجيل لا البابا مرشد المسيحي . وليس البابا معصوماً ، حتى في العقيدة أو الأخلاق ، وقد يكون البابا نفسه خاطئاً معتاداً للخطيئة أو هرطيقاً . وسلم هس بأسطورة صدقها جمهور كبير في ذلك الزمان (بل صدقها جرسون) فاستغل الكثير مما ورد عن البابا المزعوم يوحنا الثامن (الذي تقول الأسطورة) أنه كشف عن جنسه النسوي بأن وضع برنجه طفلاً مولوداً في شوارع روما . وختم هس كلامه بأنه لا طاعة للبابا إلا إذا اتفقت أوامره مع شريعة المسيح ، « وعصيان البابا الخاطئ إنما هو طاعة للمسيح »

ولما اجتمع مجلس عام في كنستانس عام ١٤١٤ لكي يخلع ثلاثة بابوات

متنافسين ويضع برنامجاً لإصلاح الكهتوت ، بدأ للعيان أن فرصة قد سنحت لإعادة الوثام بين اذسيين والكنيسة ، وكان الإمبراطور سيجموند ، الوارث الشرعى لونسيلوس الرابع الذى لاقب له ، تواقاً لإقرار السلم وإعادة الوحدة الدينية فى بوهيميا . فاقترح أن يتوجه هس إلى كنستانس ويبدأ الصلح من ناحيته . ومنح هس من أجل هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر جواز الأمان إلى كنستانس وإبداء رأيه على الملأ أمام المجلس وحرية العودة فى أمان إلى بوهيميا إذا رفض هس حكم المجلس . وعلى الرغم من التحذير الملح من معاونيه فتم رحل إلى كنستانس (اكتوبر ١٤١٤) يصحبه ثلاثة من النبلاء التشيكين وعدد من الأصدقاء . وذهب إلى كنستانس فى الوقت نفسه تقريباً ستيفن البالكزى وغيره من المعارضين البوهيميين لهس لاتهمه أمام المجلس .

ولما وصل ؛ عومل أول الأمر بجماعة وترك حراً ، ولكن ما أن عرض بالكز أمام المجلس بياناً بهرطقات هس ، حتى استدعاه أعضاء المجلس واستجوبوه واقتنعوا من إجاباته ، بأنه هرطيق كبير ، فأمروا بزجه فى السجن ، فاعتلت صحته ، وأشرف فى وقت من الأوقات على الموت ، وأرسل البابا يوحنا الثالث والعشرون أطباء من قبله لمعالجته ، وشكوا سيجموند من أن تصرف المجلس قد خالف جواز الأمان الذى أعطاه لهس ، فأجاب المجلس بأنه غير مقيد بصنيعه وبأن سلطته لا تمتد إلى الشؤون الروحية ، وبأن للكنيسة الحق فى أن يعلو حكمها على حكم الدولة إذا أرادت أن تحاكم عدواً للكنيسة ، وفى أبريل نقل هس إلى حصن جوتلين على نهر الراين ووضع هناك فى الأصفاد . وكان الغذاء الذى يقدم إليه قليلاً حتى إنه أصيب بمرض خطير . واندفع فى الوقت نفسه زميله فى الهرطقة جيروم البراغى داخلاً إلى كنستانس ، وثبت على أبواب المدينة والكنائس وعلى دور الكرادلة ، طلباً بأن الإمبراطور والمجلس يجب أن يمنحاه جواز أمان والاستماع إلى ما يقوله علناً . وألح عليه

أصدقاء هس فترك المدينة وقفل راجعاً إلى بوهيميا ، ولكنه توقف في الطريق ليخطب عن سوء معاملة المجلس لهس . فقبض عليه وأعيد إلى كنستانس وزج به في السجن ؛

وفي الخامس من يولية . سيق هس مكبلاً بعد أن قضى في السجن سبعة أشهر أمام المجلس ، ومثل كذلك في السابع والثامن من الشهر نفسه . وسئل عن الآراء الخمسة والأربعين التي سبق أن اتهمت من مؤلفات ويكلييف فأنكر معظمها وأيد بعضها . ولما ووجه بفقرات من كتابه « عن الكنيسة » عبر عن رغبته في حذف ما ينكره الكتاب المقدس (وهو بالضبط نفس الموقف الذي اتخذته لوثر في ورمس) واحتج المجلس بأن الكتاب المقدس يجب أن يفسر بوساطة رؤساء الكنيسة لا بوساطة اجتهاد الأفراد وطالب هس أن يسحب جميع تلك الآراء التي استشهد بها دون تحفظ . وناشده أصدقائه ومتهموه أن يوافق ولكنه أبى وفقد النية الطيبة للإمبراطور المتردد ، بتصريحه أن الحاكم يفقد شرعية السلطة الدنيوية أو الروحية في اللحظة التي يقترف فيها خطيئة مهلكة . وهكذا أبلغ سيجموند هس بأن المجلس إذا أدانه بطل جواز الأمان من تلقاء نفسه . وبعد ثلاثة أيام من الاستجواب والجهود التي بذلها الإمبراطور والكرادلة لكي يسحب هس آراءه ، أعيد إلى محبسه وسمح للمجلس له ولأعضائه بأربعة أسابيع للدراسة الأمر الذي كان معقداً بالنسبة للمجلس أكثر منه بالنسبة لهس . كيف يتأتى لهرطيق، أن يعيش دون أن يدمغ ذلك بعدم الإنسانية كل جرائم القتل من أجل الهرطقة التي ارتكبت في الماضي ؟ ولقد عزل هذا المجلس بابوات ، فهل يتحداه قسيس بوهيمي بسيط ؟ أليست الكنيسة وهي إرادة المجتمع الروحية كما أن الدولة إرادته الطبيعية ، مسئولة عن النظام المعنوي الذي يحتاج إلى أساس من السلطة التي لا يرقى إليها الخلاف ؟ وبدا للمجلس واضحاً أن تحدى هذه السلطة كالحياة العظمى بامتشاق السلاح

ضد الملك . وكان على الرأى أن يتطور إبان قرن آخر من الزمان قبل أن
تمكن لوثر من تحد مماثل ويسمح له مع ذلك أن يعيش .

وبذلت محاولات أخرى للحصول على شبهة عدول هس عن آرائه وأوفد
الامبراطور رسلا من لدنه للإلحاح عليه . وكانت إجابته واحدة دائماً ، إنه
يتنازل عن أى رأى من آرائه لا يؤيده الكتاب المقدس . وفى السادس من يولية
عام ١٤١٥ ، اجتمع المجلس فى كاتدرائية كنستانس وأدان كلا من ويكليف
وهس ، وأمر بإحراق كتابات هس وسلمه للسلطة الزمنية وجرده لتوه من
منصبه الدينى وسيق خارج المدينة إلى موضع أعدت فيه أكياس من الحطب
وطلب إليه للمرة الأخيرة أن ينتد نفسه بكلمة تنبى عن تنازله عن آرائه ،
يا لكنه أبى ، وأكلمته النار وهو يرتل الأناشيد .

وأنكر جيروم فى لحظة فزع تغتفر له أمام المجلس تعاليم صديقه (١٠
سبتمبر ١٤١٥) ولما أعيد إلى السجن ، استعاد شجاعته رويداً . وطالب بأن
تسمع أقواله وبعد فترة طويلة سيق أمام المجلس (٢٣ مايو ١٤١٦) وبدلاً
من السماح له بعرض قضيته ، طلب إليه أولاً أن يرد على التهم العديدة التى
وجهت إليه . فاحتج ببلاغة مؤثرة حركت الشكاك الإيطالى الإنسانى برجيو
براتشيولى الذى جاء إلى كنستانس ليكون كاتماً لسر البابا يوحنا الثالث
والعشرين : « أى جور هذا ، فى أننى أمتنع الآن ساعة أدافع فيها عن نفسى ،
أنا الذى حبست فى سجن حقير مدة ثلاثمائة وأربعين يوماً ، دون أن تتوافر
لى وسائل إعداد دفاعى ، بينما لغرمائى الحق دائماً فى أن تستمعوا إليهم ؟ إن
عقولكم تحكم على بلا مبرر بأننى هرطيق ، لقد حكتم على بأننى شرير قبل
أن تكون عندكم وسيلة ما تعرفون بها أى نوع من الناس كنته . ومع ذلك
فأنتم ناس ، ولستم آلهة ، مخلوقين ، ولستم نخالدين ، أنتم معرضون للخطأ .
وكلسا ادعيتم بأن ينظر إليكم كمصدر هداية للعالم وجب عليكم الحرص على
تأكيد العدالة للناس جميعاً . وأنا ، الذى تحكمون على قضيته ، لأهمية لى ،

كما أنني لا أحدث عن نفسي ، لأن الموت يحيق بالجميع ، ولكن لا أريد أن أرى عدداً كبيراً من الحكماء يقترفون ظلماً ، يتخذ سابقة فيكون بذلك أفدح ضرراً من العقاب الذي يفرضه » .

وقرئت التهم عليه ، واحدة بعد أخرى ، وأجاب عن كل منها بلا إنكار حتى إذا سمح له آخر الأمر أن يتحدث بحرية استمال المجلس أو كاد يستميله ، بجرارته وصدقه . وعرض بعض القضايا التاريخية التي قتل فيها الناس من أجل معتقداتهم وذكر كيف حكم التساوسة بالإعدام على ستيفن الرسول ، وأبدى أنه قلما توجد خطيئة أفدح من أن يقتل التساوسة قسيسا . ورجاه المجلس أن ينقذ نفسه بطلب المغفرة ، ولكنه أنكر بدلا من ذلك عدوله السابق عن آرائه ، وأكد اعتقاده في مبادئ بيكليف وهس ، ودمغ إحراق هس بأنه جرم لا بد أن يعاقب الله عليه . ومنحه المجلس أربعة أيام ليرجع عن رأيه . ولما لم يستغفر أدين (٣٠ مايو) وسبق تولا إلى الموضع نفسه الذي أحرق فيه هس . وسار الجلاد خلفه ليوقد النار في أكداس الخطب فناشده جيروم قائلا : « تعال أمامي . . . أوقدها أمام وجهي ، فلو كنت أخاف الموت لما قدر لي قط أن أجيء إلى هنا » . وظل يردد أحد الأناشيد حتى نخبه الدخان .

٣ - الثورة البوهيمية

(١٤١٥ - ٣٦)

أثار موت هس ، الذي تناقله الأخباريون إلى بوهيميا ، ثورة قومية فاجتمع نبلاء بوهيميون ومورافيون وأرسلوا إلى مجلس كنستانس (٢ سبتمبر ١٤١٤) وثيقة وقعها خمسمائة من أعيان التشيك ، وناصرت هس وجعلته كاثوليكيا طيبا مستقيما . وأنكرت إعدامه باعتباره إهانة لوطنه ، وأعلنت أن الموقعين سيحاربون إلى آخر قطرة من دمائهم دفاعا عن مبادئ المسيح ضد

القوانين التي من صنع البشر ، وطالب تصريح آخر بالآلا يطيعوا منذ ذلك من الأوامر البابوية إلا ما يتفق مع الكتاب المقدس ، وأن الذين يحكمون على اتفاقها مع الكتاب المقدس إنما هم هيئة التدريس بجامعة براغ . وحيث الجامعة نفسها ، هس باعتباره شهيداً ، ومدحت جيروم السجين . واستدعى المجلس النبلاء المتمردين للمثول أمامه للرد على اتهامهم بالهرطقة ، ولكن أحداً لم يحضر وأمر بإغلاق الجامعة ، بيد أن أغلبية الأساتذة والطلاب ظلوا يواصلون عملهم .

واقترح أحد أتباع هس حوالي عام ١٤١٢ وهو جاكوبك الاستريزيبوي ، وجوب بعث العرف المسيحي القديم الخاص بمناولة القربان بصورتيه - النييد إلى جانب الخبز - في العالم المسيحي كله . ولما استولت الفكرة على الصفوة والعامّة من أنصاره ، منحها هس تأييده ، فحرمها المجلس ، ودافع عن ترك العادة البدائية على أساس أنها مجازفة بسفك دم المسيح .

وبعد موت هس اتخذت جامعة براغ والنبلاء ، بقيادة الملكة صوفيا ، مناولة القربان بالنوعين جميعاً كأمر من أوامر المسيح ، وأصبح كأس العشاء الرباني شعار « ثورة الأتراكوست » Utraquist وصاغ أتباع هس عام ١٤٢٠ مبادئ براغ الأربعة باعتبارها مطالبهم الأساسية وهي : أن القربان يجب أن يتناول خمراً كما يتناول خبزاً ، وأن الاتجار بالدين يجب أن يعاقب عليه بحزم وأن « كلمة الله » يجب أن يدعى إليها بلا تراخ باعتبارها الأساس الأوحد لحقيقة الدين وشعيرته ويجب أن يوضع حد لاقتناء القساوسة أو الرهبان للممتلكات المادية المتسعة ورفضت أقلية متطرفة من الثائرين تقديس المخلفات الأثرية وعقوبة الإعدام والمطهر والقداس من أجل الموتى . ولقد وجدت جميع عناصر الإصلاح الديني اللوثرى في هذه الثورة الهسية .

وكان الملك ونسلوس الذي عطف على الحركة ، وربما فعل ذلك لأنها وعدت بنقل أملاك الكنيسة إلى الدولة ، قد أصبح يخشى أن تهدد السلطة

المدنية تهديدها للسلطة الدينية وفي المدينة الحديدية التي أضافها إلى براغ لم يعين إلا الذين لا يدينون بالهسية في المجلس ، وأصدر هؤلاء الرجال قواعد عقوبات قصد بها القضاء على الهرطقة . وفي ٣٠ يوليو عام ١٤٩١ قام جمهور هس بموكب في المدينة الحديدية . وشق له طريقا حتى بلغ قاعة المجلس ، وألقى بأعضائه من النوافذ إلى الطريق ، حيث قضى عليهم جمهور آخر . ونظم اجتماع شعبي انتخب أعضاء المجلس الهسيتي وأقر ونسلسوس المجلس الجديد ، ثم مات بنوبة قلبية (١٤١٩) .

وعرض نبلاء بوهيميا أن يقبلوا سيجموند ملكا عليهم ، إذا اعترف « بمبادئ براغ الأربعة » . فما كان منه إلا أن طالب جميع التشيك بالطاعة الكاملة للكنيسة وألقى في المحرقة بوهيميا أبي أن يتبرأ من تناول الكأس الرباني . وأعلن البابا الجديد مارتن الخامس ، حملة صليبية ضد الهرطقة البوهيميين وزحف سيجموند ومنعه قوة كبيرة إلى براغ (١٤٢٠) ونظم الهسيون جيشا حوالى الليلة السابقة وأرسلت كل مدينة في بوهيميا ومورافيا تقريبا المتطوعين المتحمسين ودرهم جان زيزكا وهو فارس أعور في الستين من عمره وأحرز بهم انتصارات رائعة . ولقد هزموا فرق سيجموند مرتين . فجمع سيجموند جيشا آخر ولكن ما أن جاء خبر زائف بأن رجال زيزكا يقتربون ، حتى فر الجيش الحديد في غير نظام دون أن يرى عدوا ما . وأسكر رجال زيزكا الطهرين النصر فأخذوا عن خصومهم فكرة القضاء على الخلاف الديني بالقوة وساروا في طول بوهيميا ومورافيا وسيلزيا وعرضها كأنهم عاصفة تقتلع أمامها كل شيء ، ينهبون الأديرة وينهبون الرهبان ويرغمون السكان على قبول مبادئ براغ الأربعة وأصبح الألمان في بوهيميا الذين رغبوا في البقاء على كاثوليكيتهم ، الضحايا المفضلة للقوات الهسية وعاشت بوهيميا في الوقت نفسه ومدى سبعة عشر عاما (١٤١٩ - ٣٦) بلا ملك .

وانحدت عناصر متعددة ومتصارعة لتكون الثورة البوهيمية . فإن المواطنين البوهيميين أسخطهم ما عند المقيمين الألمان من ثروة وما فيهم من تعاضم وأملوا في إجلائهم عن الوطن . وطمع النبلاء في ممتلكات الكنيسة ورأوا أنها تستحق المصادرة . وطمح الكادحون اليدويون أن يحرروا أنفسهم من سادتهم من الطبقة الوسطى . وتناقت الطبقة الوسطى أن تضاعف من قوتها المحدودة ضد النبلاء ، في مجلس الدايت الذي كان يحكم براغ والذي يسهم في حكم بوهيميا . وحلم عبيد الأرض وبخاصة من كان منهم يعمل في إقطاعيات الكنيسة ، بتقسيم هذه الأراضي المباركة أو تحرير أنفسهم على الأقل من القيود الوبيلة . وقدم بعض صغار رجال الدين الذين ظلمهم رؤسائهم تأييدهم الصامت للثورة وزودوها بالقيام على الشعائر الدينية التي حرمتها الكنيسة .

ولما ظفر الجيش الهسي بمعظم بوهيميا ، أدت غاياتهم المتناقضة إلى انقسامهم فرقاً يقتل بعضها بعضاً . وبعد أن استولى النبلاء على أكثر أموال الجماعات الدينية الأرثوذكسية ، شعروا بأن الثورة يجب أن تخدم وأن يتيحوا الفرصة لمؤثرات الزمن . بينما صخب عبيد الأرض الذين أفلحوها من أجل الكنيسة مطالبين بتقسيمها فيما بينهم باعتبارهم أحراراً فإن الملاك النبلاء طالبوا عبيد الأرض بأن يخدموا السادة الجدد على أسس العبودية السابقة نفسها . وأيد زيزكا الفلاحين ، وحاصر فترة من الزمن « الكأسيين » أو بعبارة أخرى الهسين أصحاب الكأس الرباني في براغ الذين أصبحوا محافظين . ولما تعب من الصراع قبل هدنة وانسحب إلى بوهيميا الشرقية وأسس (أخوه حوديب) (١) هدفها تحقيق المبادئ الأربعة وقتل الألمان . ولما مات (١٤١٤) أوصى أن يصنع من جلده طبل حربي .

(١) على اسم جبل يشبه جزيرة سيناء .

وتألفت في تابور فرقة هسية أخرى ، ذهبت إلى أن المسيحية الحققة تتطلب تنظيمًا شيوعيًا للحياة . ولقد وجدت في بوهيميا قبل هس جماعات من الوالدينزيين والبجهاردينين وغيرهم من الهراطقة الذين لا رادع لهم يمزجون المثل الدينية بالمثل الشيوعية . واحتفظوا بهدوء بحمدون عليه إلى أن اقتلعت قوات زيزكا سلطة الكنيسة من معظم بوهيميا ، فظهروا علنا ، واستولوا على القيادة المذهبية في تابور . وأنكر كثير منهم « الوجود الحقيقي » والمطهر والصلاة للموتى ، وكل الأسرار المقدسة ما عدا العباد والعشاء الرباني ولم يشجعوا تقديس الخلفات الأثرية والصور والتقيسين ، واقترحوا إعادة الشعيرة البسيطة لكنيسة الحوارين . وأنكروا جميع الشعائر والأزياء الكهنوتية التي لم يجدوها في المسيحية الأولى . وعارضوا المذابح وآلات الأرغن الموسيقية وفخامة الزخرف الكنسي وأتلفوا كل ما عثروا عليه من هذه الزينة . وأنقصوا العبادات مثلهم في ذلك مثل البروتستانت المتأخرين ، إلى القربان والصلاة والقراءة في الكتاب المقدس والعظة وترتيل الأناشيد ، ويقوم على هذه الشعائر رجال دين لا يختلفون في الزى عن غيرهم من المدنيين .

ولقد استخلص معظم التابوريين ، الاتجاه الشيوعي من المعتقد بعودة المسيح وحكمه ألف سنة . فإن المسيح سرعان ما يجيء ويوطد مملكته على الأرض ، ولا تكون في هذه المملكة ملكية ولا كنيسة ولا دولة ولا تفرقة طبقية ولا قوانين وضعية ولا ضرائب ولا زواج ، وفي المؤكد أن المسيح ، سيمره عند مجيئه أن يجد عباده قد أنشأوا مثل هذه المدينة الفاضلة السماوية وطبقت مثل هذه المبادئ في تابور وبعض المدن الأخرى ، وقال أستاذ معاصر من أساتذة جامعة براغ : كل شيء هناك على المشاع ، لا يملك أحد شيئاً لنفسه وحده ، ولذلك عد التملك دائماً يستحق مقترفه

الموت . وهم يرون أن الجميع يجب أن يكونوا أخوة وأخوات
متساويين .

وقد تحول فلاح بوهيمى إلى فيلسوف ، واسمه بيتر تشلجى وذهب
في آرائه إلى أبعد من ذلك ، وكتب بلغة تشيكية قوية مجموعة من
المقالات التولستوية يدعو فيها إلى فوضوية مسالمة . وهاجم الأقباء
والأغنياء ، وأنكر الحرب وعقوبة الإعدام وعدهما قتلا ، وطالب بمجتمع
لا سادة فيه ولا عميد ، ولا قوانين من أى نوع . وناشد أتباعه أن
يتبعوا المسيحية اتباعا حرفيا ، كما وجدوها في العهد الجديد وألا يعتمدوا
إلا البالغين ، وأن يديروا ظهورهم للدنيا ومناهجها ولحلف اليسين والتعلم
والامتيازات الطبقيّة ، وللتجارة وحياة المدينة وأن يعيشوا في فقر اختياري
وأن يؤثروا فلاحه الأرض ، وأن يتجاهلوا تمام التجاهل الحضارة
والدولة . ووجد الثابوريون هذه الدعوة السلمية لا تناسب مزاجهم .
فانقسموا إلى أحرار معتدلين ومتطرفين « وهؤلاء دعوا إلى مبدأ العرى
وشيوعية النساء » ، وتحولت الفرقتان في الجدل إلى الحرب . وفي غضون
سنوات قليلة تطورت القدرات غير المتسارية إلى تفاوتات في القوة
والامتياز ، ثم إلى تفاوت في السلع آخر الأمر ، وحل محل رسل
السلام والحربة ، مشرعون لا رحمة عندهم يقوم تدبيرهم على
الاستبداد الغاشم .

واستمع العالم المسيحي في فزع إلى هذه المسيحية الشيوعية المزعومة ،
وبدأ الهسيون في البارونات وسكان المدن يتطلعون إلى كنيسة روما باعتبارها
المنظمة الوحيدة التي لها من القوة ما يتيح لها أن تتضى على التحلل الوشيك
للنظام الاجتماعي القائم وهللوا عند ما رحب مجلس بازل بالتوفيق . وذهب
وفد من المجلس إلى بوهيميا دون الحصول على موافقة البابا ، ووقع مجموعة
من المواثيق ، صيغت بحيث يفسرها المسلمون من الهسيين والكاثلكة بأنها

تقبل وترفض مبادئ براغ الأربعة (١٤٣٣) . ولما أبى التابوريون الاعتراف بهذه العهود انضم المهسيون المحافظون إلى الجماعة الأرثوذكسية الباقية في بوهيميا وهاجموا التابوريين المنقسمين على أنفسهم وألحقوا بهم الهزيمة ، وقضوا على التجربة الشيوعية (١٤١٤) واصطلح مجلس « الدايت البوهيمي » مع سيجموند واعترف به ملكاً (١٤٣٦) .

ولكن سيجموند الذي ألف أن يتوج انتصاراته بما لا نفع فيه ، مات في السنة التالية . وبلغ الحزب الأرثوذكسي ، إبان الفوضى التي أعقبت ذلك ، المكانة العليا في براغ . وألف قائد محلي قدير هو جورج البوديرادي جيشاً من المهسين ، واستولى على براغ ، وأعاد جان روكيكانا . إلى كرسي كبير الأساقفة ونصب نفسه حاكماً على بوهيميا (١٤٥١) . ولما أبى البابا نيقولاس الخامس الاعتراف بروكيكانا فكر الأتراكوست في أن يتحولوا بولائهم إلى كنيسة الروم الأرثوذكس ولكن سقوط القسطنطينية في يد الأتراك وضع حداً للمفاوضات وفي عام ١٤٥٨ اختار مجلس الدايت البوديرادي ملكاً لما رآه من إدارته الفائقة التي وطدت النظام والازدهار في البلاد .

فتحول بجهوده إلى إقرار السلام الديني . وأرسل بموافقة مجلس « الدايت » وفداً إلى بيوس الثاني (١٤٦٢) يطلب التصديق البابوي على عهود براغ فأبى البابا وحرّم على المدنيين في كل مكان أن يتناولوا القربان بنوعيه وعمل « البوديرادي » بنصيحة « جريجور هايمبورج » وهو فقيه ألماني ودعا عام ١٤٦٤ ملوك أوروبا لكي يؤلفوا اتحاداً دائماً للدول الأوروبية له سلطة تشريعية وأخرى تنفيذية وجيش ومحكمة لها حق الحكم في المنازعات الدولية في الحاضر والمستقبل ، فلم يجب الملوك على هذه الدعوة ، وكانت البابوية المنتعشة من القوة إلى الحد الذي لا تأبه فيه « بحلف أمي » وأعلن البابا بول الثاني

أن البوديبيرادى هرطيق وحرر رعاياه فى يمين ولائهم له ودعا الدول المسيحية إلى خلعها (١٤٦٦) ، وأخذ مارتكاس كورفينوس الهنغارى على عاتقه القيام بهذه المهمة ، فغزا بوهيميا وتوجه فريق من النبلاء الكاثوليك (١٤٦٩) ملكاً ؛ وعرض البوديبيرادى العرش على لاديلاس بن كازيمير الرابع ملك بولنده . وأنهكته الحرب وداء الاستسقاء فمات وله من العمر إحدى وخمسون سنة (١٤٧١) . وتمجده بوهيميا وهى الآن تشيكوسلوفاكيا ، باعتباره أعظم ملوكها بعد شارل الرابع .

ووافق مجلس الدايت على لاديسلاس الثانى وانسحب ماثياس إلى هنغاريا واستغل النبلاء ضعف الشباب فى الملك لكى يوطدوا سلطانهم الاقتصادى والسياسى ، ولينقصوا من عدد نواب المدن والقرى فى مجلس الدايت وأن يعيدوا إلى هوان العبودية الفلاحين الذين حلموا بالمدينة الفاضلة وفر آلاف من البوهيميين إبان هذه الفترة من الثورة والنكسة إلى بلاد أخرى . وفى عام (١) ١٤٨٥ وقع الحزبان الكاثوليكي والأتراكوست معاهدة كنفاهورا وتعهدا بالتزام السلم ثلاثين سنة .

(١) خلط الفرنسيون بين البوهيميين المبعدين والنجر (Gypsies) الذين وصلوا إبان القرن الخامس عشر إلى أوروبا الغربية ، مشترخين مجيئهم من بوهيميا فجعلوا اسم بوهيمى يرادف النجرى . واسم جيپسى Gypsy تحريف لاسم ايجبشيان أى مصرى ، ويوحى بما زعمته القبيلة فى أنها جاءت من مصر الصغرى . ويرجع برتن نشأتهم إلى الهند . وسماوا فى الأراضى البيزنطية باسم الروم - أى الرومان (الشرقيين) ، وأطلق عليهم فى البلقان وأوروبا الوسطى بشتقان من آرزيجان (سزيجانى ، زيجر ، زنجارى) . وهى كلمة يشك فى أصلها . وبدأ ظهورهم فى السجلات الأوروبية فى أوائل القرن الرابع عشر بوصفهم جماعات متجولة من أصحاب الحرف والموسيقين والراقصين والبرافين واللصوص - كما كان الاعتقاد السائد . ووصلوا حوالى عام ١٤١٤ إلى ألمانيا وعام ١٤٢٢ إلى إيطاليا وعام ١٤٢٧ إلى فرنسا وعام ١٥٠٠ إلى إنجلترا .

وكانوا يقبلون العمد فى العادة ؛ ولكنهم تساهلوا فى الدين والتزام الوصايا ومنه عان ما وقموا تحت طائلة محاكم التفتيش . وطردها من إسبانيا (١٤٩٩) ومن الإمبراطورية

وألف أتباع الثلجكي في بوهيميا الشرقية ومورافيا (١٤٥٧) فرقة مسيحية جديدة ، اسمها كنيسة الأخوة ، ووقفوا أنفسهم على حياة زراعية بسيطة على مبادئ العهد الجديد وفي عام ١٤٦٧ أنكروا سلطة الكنيسة الكاثوليكية وقدسوا قساوستهم ورفضوا المطهر وعبادة القديسين وأرهبوا بمذهب لوثر في التزكية بالعتيدة ، وأصبحوا أمل الكنيسة الحديثة التي تدين بالمسيحية ، وما أن جاء عام ١٥٠٠ حتى بلغ أعضاؤها مائة ألف مسيحي . ولقد قضى على هؤلاء « الإخوان المورافيين » تقريبا في سورة حرب الثلاثين سنة ، وهم إنما عاشوا بفضل جون كومنْيوس ، ولا يزالون موجودين في جماعات مفرقة في أوروبا وأفريقيا وأمريكا ، وهم يدهشون عالما يتسم بالعنف والشك ، بتسامحهم الديني وتقواهم [غير المزعومة] وولايتهم السلمى للمبادئ التي يعتنقونها .

٤ - بولنده

(١٣٠٠ - ١٠٥٥)

إن المحافظة على السلم عسيرة ، حتى في المناطق التي تستمد وحدتها ومناعتها من الحواجز الجغرافية ، ولنلاحظ كيف تكون المحافظة على هذا السلم أعسر كثيرا في الدول التي تتعرض على أحد حدودها أو أكثر لجيران متعطشين للغزو أبدا ، ينزعون إلى التغرير حيناً وإلى القوة حيناً آخر ، واختنقت بولنده بعض الاختناق إبان القرن الرابع عشر على يد الفرسان التوتون واللوانيين والهنغارين والمورافيين والبوهيميين والألمان وذلك بالضغط على حدودها . وما كاد لاريسلاس « القصير » يصبح الأمير الأكبر لبولنده الصغرى أى الجنوبية (١٣٠٦) حتى واجه حشداً من الأعداء . ورفض الألمان طاعته في

= الرومانية المقدسة (١٥٠٠ - ١٥٤٨) ومن فرنسا (١٥٦١) . وتنحصر مساهمتهم في الحضارة إذا استثنينا لبامهم المشرق المنوع الألوان والحلى الخاصة بنسائهم الموسرات ، في الرقص والموسيقى - وقد أوحى تبادلهم في الألحان بين الحزن والقوة إلى بعض كبار الملحنين والموسميين .

بولنده الكبرى أى الغربية واستولى الفرسان على داننرج وبوميرانيا ، وتآمر
مارجراف - الحاكم العسكرى - حارس تخوم براندنبرج للقضاء عليه ،
وادعى ونسلوس الثالث صاحب بوهيميا العرش البولندى لنفسه ، وجاهد
لاريسلاس فى هذا الحضم من المتاعب بالسلاح والسياسة والزواج ، حتى
حد بولنده الصغرى والكبرى فى مملكة متماسكة ، وعمل وتوج نفسه ملكاً
فى كراكاو عاصمته الجديدة (١٣٢٠) . ولما مات بالغاً من العمر ثلاثاً
وسبعين سنة (١٣٣٣) أوصى بعرشه العصى إلى ابنه الوحيد كازيمير الأكبر .
وقد يستكثر البعض هذا اللقب على كازيمير الثالث ، لأنه كان يؤثر
لمفاوضة والمصالحة ، على الحرب ، وتنازل عن سيليزيا إلى بوهيميا وعن
وميرانيا إلى الفرسان ، وقنع بالحصول على غاليسيا حول لواء ومازوفيا
حول وارسو ؛ ووقف حكمه مدى سبع وثلاثين سنة على الإدارة ، فجعل
أقاليمه المختلفة تحت ظل قانون واحد ، « يجب ألا تبدو الدولة كوحش كثير
الرؤوس » ووحيد بتوجيهه ، فريق من الفقهاء القانون والعادات المتفاوتة
للولايات فى قوانين كازيمير - وهى المحاولة الأولى فى وضع القوانين البولندية
فى مجموعة واحدة . . . وهى مثال على الاعتدال الإنسانى ، إذا قورنت
بمجموعات القوانين المعاصرة ، ولقد حمى كازيمير اليهود والروم الأرثوذكس
وغيرهم من الأقليات العنصرية والدينية ، وشجع التعليم والفنون وأسس جامعة
كراكاو (١٣٦٤) وشيد الكثير من المباني حتى قال الناس أنه وجد بولنده
مبنية من الخشب فأعاد بناءها بالحجر وشجع بحكمته البارعة شئون الأمة
الاقتصادية حتى لقبه الفلاحون « بملك المزارعين » ، وأثرى التجار فى ظل
السلام وأجمعت الطبقات كلها على تلميته « بالكبير » .

ولم يكن له وريث من الذكور ، فترك تاجه لابن أخيه لويس الكبير
ملك هنغاريا (١٣٧٠) ، آملاً أن يحرز لبلاده حماية ملكية منيعة ونصيلاً
من الحافظ الثقافى الذى جلبته الأسرة الإنجفيلية من إيطاليا وفرنسا ، ولكن

لويس حصر اهتمامه في هنغاريا وأهمل بولنדה ، وأراد أن يجعل النبلاء المزهوين بأنفسهم على ولاء له في غيابه بمقتضى « امتياز كاتسا » (١٣٧٤) الذى ينص على الإعفاء من معظم الضرائب واحتكار المناصب العليا . ولما مات نشبت الحرب في سبيل العرش (١٣٨٢) واعترف مجلس « السيم » أى البرلمان بابنته جادويجا البالغة من العمر إحدى عشر سنة (ماكا) ، ولم يقض على الاضطراب إلا زواج جاجللو أمير أمراء ليتوانيا من جادويجا (١٣٨٦) فوحد بذلك مملكته الشاسعة وبولنדה ومنح الحكومة شخصية آمرة .

وكان نمو ليتوانيا ظاهرة كبيرة من ظواهر القرن الرابع عشر فلقد ضم جيديمن وابنه ألجيرد تحت حكمهما الوثنى روسيا الغربية بأسرها : بولتسك وبنسك وسمولنسك وتشرنيجوف وفولهنيا وكيث وبودوليا وأوكرانيا ، وفرح بعض هؤلاء أن وجدوا في ظل الأمراء الكبار ، عاصمة من القبيلة الذهبية التتارية التى جعلت روسيا الشرقية التزاما إقطاعيا لها . ولما خلف جاجللو ، ألجيرد (١٣٧٧) كانت الإمبراطورية اللتوانية ، التى تحكم في ويلنو وتمتد من البلطيق إلى البحر الأسود وتكاد تصل إلى موسكو نفسها . وكانت هذه هى الهدية التى نقلها جاجللو إلى جادويجا أو بعبارة أخرى كانت بولنדה بأسرها هى الصداق الذى قدمته إليه ، ولم تتجاوز السادسة عشرة عند زواجها ، ولقد نشأت رومانية كاثوليكية فى محيط أرفع ثقافة للاتينية عصر النهضة ، أما هو فكان فى السادسة والثلاثين من عمره ، أميا كافراً ولكنه قبل العماد واتخذ لنفسه الاسم المسيحى لاديسلاس الثانى ، ووعد أن يدخل ليتوانيا بأسرها فى المسيحية .

وكان ذلك اتحاداً مؤقتاً ، لأن تقدم الفرسان الألمان ناحية الشرق كان يهدد بالخطر دولتى الزوجين معاً . وتحولت « جماعة الإخوان فى الصليب » التى وقفت نفسها فى الأصل على تنصير الصقالبة ، إلى فرقة من المحاربين

الغزاة يأخذون بحد السيف كل ما يستطيعون اختطافه من الأرض من أصحابها سواء أكانوا وثنيين أم مسيحيين وأنشأوا عبودية إقطاعية غليظة على الأراضي التي أفلحها يوماً من الأيام مزارعون أحرار . وحكم السيد الأكبر عام ١٤١٠ من عاصمته مادينبرج ، استونيا وليفونيا وكورلند وبروسيا وبوميرانيا الشرقية وبهذا فصل بولنده عند البحر والتقى في « حرب شمالية » ضروس ، جيش السيد الأكبر وجيش نجاجللو ، ولقد أبدت أن كلا منهما كان يتألف من عشرة آلاف من الأشداء - في موقعة بالقرب من جرونيفولد أوتاتنبرج (١٤١٠) وهزم الفرسان ولاذوا بالفرار ، مخلفين وراءهم أربعة عشر ألف أسير وثمانية عشر ألف قتيل ، بينهم السيد الأكبر نفسه . وأفل نجم جماعة الإخوان في الصليب منذ ذلك اليوم سريعاً حتى تنازلت في صالح ثورن (١٤٦٦) عن بوميرانيا وبروسيا الغربية إلى بولنده بما في ذلك ميناء دانزج الحر باعتباره منفذاً إلى البحر .

وبلغت بولنده في عهد كازيمير الرابع (١٤٤٧ - ٩٢) أقصى اتساعها وذرورة قوتها وأوج فنها . ومع أن كازيمير كان أمياً ، إلا أنه ختم كراهة الفروسية للقراءة والكتابة ، بأن منح أولاده تعليماً كاملاً . وخلفت الملكة جادويجا وهي تحتضر ، جواهرها للإنفاق على إعادة افتتاح جامعة كراكاو - وهي التي قدر لها أن تعلم في القرن التالي كوبرنيكوس . وتوسل الأدب إلى جانب الفلسفة والعلم باللغة اللاتينية ، وكتب تجان ولوجوز كتابه الكلاسي « تاريخ بولنده » (١٤٧٨) ودعا عام ١٤٧٧ فيت ستوس النورمبرجي إلى كراكاو ، فكث فيها سبع عشرة سنة ، وبلغ بالمدينة مكاناً رفيعاً في فن ذلك العصر ، ولقد نقش لكنيسة سيدتنا مائة وسبعة وأربعين مقعداً للمرتلين ، ومذبحاً كبيراً ، وهو أربعون قدماً في ثلاثة وثلاثين مع ضريح مركزي للقيامة ، وهو في روعة صورة تيتيان ومع ثمان عشرة صورة جدارية تقص حياة مريم وطفلها - وهي صور

جدارية جديدة - وإن كانت في الخشب - بأن تضارع الأبواب البرونزية التي حققها غيرتي لموضع العماد الفلورنسي قبل ذلك بقرن . وحفرستوس لكتدرائية كراكاو مدفناً فخماً من المرمر الأحمر المزرقش لكازيمير الرابع ، وبلغ النحت القوطي بهذه الآثار في بولنده أوجه ونهايته . أما في عهد ابن كازيمير ، وهو سيجموند الأول (١٥٠٦ - ٤٨) فقد اتخذ الفن البولندي ، لوثرية عصر النهضة الإيطالية الذي تسرب في ألمانيا ، وهكذا بدأ عصر جديد .